

ضفادع الجواهري: عشق لم يكن ليعلن لولا النقيق

مقتطفات

عبد الكريم كاظم

نظم الجواهري قصيده في أغراض شعرية مختلفة غير أن ما تميز به كون تلك الأغراض منعزلة عن بعضها بكيانات مكرسة لغرض واحد دون غيره. ولأن الشعر عنده انعكاس عن الحياة أو الطبيعة، وتعبير عنها لا تقتصر عند غرض ما أو فكرة ما أو موقف ونزوع، بل هي تحوي كل شيء. ومن بعض هذه الأغراض ما ورد في الأبيات الضفدعية الثلاثة عشر من رائعته المعروفة بـ (المقصورة) وسوف نشير في قراءتنا هنا إلى هذين البيتين الشعريين⁽¹⁾:

سلامٌ على جاعلات النقيق على الشاطئين بريد الهوى
لعنتن من صبية لا تشيخُ ومن شيخةٍ دهرها تُصطبي

ما من كلام خارج القصيدة يسند المعنى. ذلك لأن القصيدة ذاتها هي الجناح الأسر الذي يطير به الشاعر في فضاء العالم والطبيعة ليعانق، تالياً، الأشياء بحرية تامة. وهي في الوقت نفسه الوسيلة الممكنة التي يتوازن بها مع العالم مستشرفاً واقعها المرجو ليرسم بعدها خارطة لوجودها المأمول بغض النظر عن البعد الرمزي الذي يشكل المعنى الأوسع في تجربة الشاعر ونظراته التأملية. في مقطوعته ذات الصلة، يخاطب الجواهري الضفادع وهي تستحوذ على جماع قلبه، بهتافاتها أو برسائلها البريادية المغلفة - بالغزل، لذلك لا يغدو الأمر من قبيل الرومانسية المغرقة في هم الذات أو النرجسية المغلقة وإن كان في تلك الأبيات الشعرية الكثير من العاطفة الإنسانية الواسعة التي تشمل الطبيعة، ومخلوقاتها - فيها شيئاً من الاسترخاء الذي يشبه إلى حد كبير استراحة العاشق، أو بالأحرى تتبع الروافد التي تتفرع عن قلبه، وهي تفرعات تفقد البصيرة لإدراك ملامحها وتتبع خيوطها في النسيج العام للتجربة الذي يغدقه الشاعر على ذلك المخلوق الصغير الأسر "الضفدع" الذي استحق هذه الوقفة الشعرية التأملية بتعبير فوزي كريم.

... في مثل هذا الاستخدام الصوري يمنحنا الشاعر، على مستوى التجريد، تراكمات صورية أخرى تتنامى تباعاً خلال البناء اللفظي واستطالة الكلمة الأولى "سلامٌ" التي سرعان ما يطفو على سطحها الموقف العاطفي كما تتجه الصور الشعرية اللاحقة نحو الاستعارية في علائقها المكانية "الشاطئين" والدلالية "بريد الهوى"، وذلك في الحوار الدائر بين الشاعر ونقيق ضفادعه... ومسؤول عن كل ذلك خيال الشاعر ذاته وهو ما يرتبط عادة بكيفية انتقاء المشهد من الطبيعة التي تغدو هنا طريقاً أكثر اتصالاً بالشاعر حيث يصعب التمييز بينهما... وحين يفرض "النقيق" حضوره المادي بهذا الشكل الدافع للخيال سيفرض مجدداً وجوده بصورة تلقائية ومماثلة لما هو موجود في عالم الضفادع الذي يصفه بطريقة شعرية محضة... إن الشاعر، هنا، ليس رانياً وحسب، إنما هو خالق لعوالم ستقوم وأحلاماً سوف تتحقق فنقيق الضفادع في هذه الحالة سيبيعث على حرارة الحياة مثلما يسهم في ديمومتها.

يوصل الجواهري في البيتين أعلاه الخيال الشعري المرتبط بالموقف العاطفي أو الإنساني، وهذا

الارتباط يجعل من حدس الشاعر يقظاً لدرجة نستحيل التفريق بين التخيل والوصف الذي يفجر الينابيع السخية المدفونة في ذلك الصوت "النقيق" حيث تزول الحدود بين خرافة الوصف وحقيقة الصوت وهل عجب أن يغدو الصوت حقيقياً قائماً على أرض الواقع مرتكزاً بركائز المعنى التجريدي عبر "صبيّة" — "لا تشيخ"، حيث كل شيء أكبر من معاتبة الشاعر وتصوراتهِ وقدراتهِ الحسية والمعنوية، ونحن نرى خيال الشاعر وقد توزع في خط بياني بين الشيوخوخة ونقيضها وفق مستوى التآرجح بينهما وهو ما يقابله التحول من حالة الشيوخوخة بتراكماتها المريرة إلى مرحلة الصبا بعوالمها المفتوحة. ويقابل ذلك أيضاً من الناحية النفسية الانتقال من مرحلة زمنية إلى أخرى فالصبيّة/الذي يبطل أن يكون شيخاً يستحق هذه اللعنة الشعرية.. إنها الحلقة الموصلة بين زمنين، وهذا بالنسبة للشاعر أمراً لا مفر منه في حدود الكتابة الشعرية أن جاز التعبير.

أثناء قراءتنا لهذين البيتين يتسلل إلى ذاكرتنا نصّ شعريّ بعنوان (الجواهري⁽²⁾) كتبه الشاعر "سعدى يوسف" الذي برر من خلاله مشاعر التآرجح بشكل فني يجعلنا نتتبع وإياه أفق الشاعر الذي يسير نحو الحلم أو الرؤيا الشعرية الحاضرة بقوة من خلال فعل الخيال الذي يخلق بدوره الصحوة التامة أو الرؤية الكاشفة التي ترى وتسمع الأشياء على حقيقتها حيث يتسلل الصوت بصورة متواشجة متناسجة من جسد الطبيعة كأحلى ما يكون وعلى أجمل وأكمل وجه وصورة، وإذا كانت الطبيعة طريقاً للخيال، كما بينا، فإن القصيدة، بالضرورة والنتيجة، هي الخيال نفسه وذلك على المستويين الواقعي والرمزي. هكذا إذن كان النص المكتوب من قبل سعدى يوسف طريقاً للخيال الجامح الذي التقى فيه مع ذلك الضفدع المبتل والمختل، لنقرأ:

حين رأى الجواهري

الجنّ بين الصخر، تقفّرُ

أو تندس تحت الرمل

أقام من ضفدعه المبتل والمختل،

دارته المثلى

وبيت العقل

وبهذا تتحول القصيدة إلى كون صغير يحمل معه دلالاته العميقة أو حضوره الخاص المستمد من تلك العوالم الشعرية الخارقة حيث يحتل الجمال فيها دوراً يفوق الخيال ويؤجج الحرائق في المخيلة.

إشارات:

(1) الجواهري في العيون من أشعاره/ط4 — 1998/دمشق

(2) الأعمال الشعرية الكاملة لسعدى يوسف — المجلد الثاني/دار العودة/ط1 — 1988

(3) المادة المنشورة هنا جزء من موضوع طويل، نشر

على موقع "عراق الكلمة" بتاريخ 2008/2/11